عبــرَ الحــدود

كانت الزّوية تجاوِر بلادَ ومدنَ فلسطين الشمالية ، صفد وسَمَخ وطبريّا ، ومياهُ البحيرةِ تفصلُ بينها ، ولأهل هذه القرىٰ والمدن صِلاتٌ حَميمةٌ مع بعضها علىٰ طرفي الحدود ، ولهم فيها قُربىٰ ومُصاهراتٌ ، إنها البلد الواحد منذ خلقها الله وأودعها أَهَلَها المؤمنين ، فهناك غرباً حيطن ولوبيا وحتىٰ الناصرة وحيفا إنها أرضُ الأنبياء والرسلِ ، وهي تتواصل مع القرىٰ والمدن في شرقها مثل سكوفيا وكفر حارب وفيق والعال والبطيحة حتىٰ درعا والقنيطرة ، إنها المرتفعات السورية إنها الجولان وحوران.

وقال والدي للحاضرين في مجلسه: غداً عيد الأضحىٰ المبارك فلا بد من اكتمال الفرحةِ ، وإني ذاهبٌ غداً إلىٰ مدينةِ سمخ في فلسطين لجلبِ حاجيات العيد لتَفْرَحَ النساءُ والأطفالُ ، فمن يرغبُ فليُجَهِّزَ نفسه للمسير في الصباح الباكر.

وسار الرَّكبُ المؤلَّفُ من رجالٍ ونساءٍ ، وكلٌّ يحمل ما عنده من منتجاتٍ جمعها خلالَ المواسمِ الزراعية من حنطةٍ وعدسٍ وحمصٍ وسمسمٍ وسمنٍ وزُبدةٍ وبَيْضٍ ، حملوها علىٰ دوابهم

وراحوا يعبرون الحدودَ وكلهم أَمَلٌ بألاّ توقفهم الدورياتُ التي تحرسُ هذه الطرقاتِ ، إن والدي خبيرٌ بها وبِحُراسها وله معهم صداقاتٌ ، وسوف يَغُضّون النظرَ عنهم ، فإن أحمالهم بسيطةٌ وليس هدفهم التجارة وإنها للتزوُّدِ بحاجياتِ العيد وفي مدينة سمخ ، هذه المدينة الفلسطينيَّةُ التجارية ، إنها تقع جنوبي بحيرة طبريّا ويمرُّ فيها الخطُّ الحديدي الحجازي الواصل إلىٰ حيفا علىٰ ساحلِ البحرِ المتوسط ، والقادم من بلادِ الشام ماراً بمدينة درعا عبر وادي خالد والحمة السورية ، إنها مدينةٌ تجاريةٌ نشيطةُ الحركة فيها تجارٌ من فلسطين والشام ولليهود فيها مخازنُ كثيرةٌ ، وهناك التجار الأعاجم وكلٌّ ينافس الآخر في جلبِ الزبائن والتَّفَنُّنِ بعرضِ البضائع والأقمشةِ بالوسائل المشروعة التي تُرْضي شرع الله ، أما اليهودُ فإنهم كانوا يرابونَ بأموالهم وتجارتهم ويأخذون الفائضَ علىٰ ديونهم لمن لا يملك أداءَها ، ومنهم من يدفعُ ما أَخَذَ مضاعفاً لهم ، إنها اسغلالٌ لحاجة الناسِ ومراباةٌ كي يُضيفوا إلىٰ ثرواتهم وهذا هو همهم في الحياة وبالمالِ يستغلون البشر وبه يُسيِّرون السَّاسةَ ويشترون ضمائِرَ الحكام ، كما يحدثُ اليومَ في الولايات المتحدةِ الأمريكية وبلادِ الغربِ الاستعماري.

وبعد أن باع الناسُ أحمالهم ، واشتروا بضائع ولوازم وحلوىٰ العيد ، فرحين بما جلبوا لأبنائهم ، ولكن فرحتهم لم تكتمِلْ! فقد جاءت طائرةٌ من طائرات الألمان وقَصَفَتَ الميناء

ومحطَّة السكة الحديدية والسوق التجاري ، إنها الحرب التي كانت مشتعلة بين دولٍ استعماريةٍ وامتدت إلىٰ أرضنا حيث كان المستعمرون يتواجدون ، وأحدثت هذه الغارَةُ أضراراً فادحةً وقتلىٰ ، وكان من بينهم واحدة من النسوةِ القادمات مع الركب وانفَضَّ الناس إلىٰ خارج المدينة حاملين الشهيدة وما تبقّىٰ لهم من متاع وعادوا والأسىٰ يُسيطرُ عليهم! . . .

قال أحد الرجال: فما لنا وحروبهم ، إنهم يتقاتلون ها هنا علىٰ أرضنا ويقتلون أبناءَها ويدمرون خيراتها ، وقالت أخرىٰ: ويأخذون رجالنا وأولادنا جنوداً في جيوشهم ليحاربوا أعداءَهم وليس لنا مصلحةٌ في هذه الحروب؟ فهم يريدون أن يتقاسموا خيراتِ وثرواتِ العالم ، وجاؤوا طامعين إلىٰ بلادنا لكثرةِ ثرواتها واكتشاف البترول فيها.

فهذا ابن الحاج سالم ذهب إلىٰ حرب السويس ولم يَعُدْ لأهله، وذاك ممدوح أخذوه إلىٰ حرب العلمين وكان بين المفقودين ، وغيرهم كثير علىٰ مدى الوطن أصبحوا وقوداً لحروبهم ، وقال والدي وها هم يدعمون اليهود في فلسطين ويقدمون لهم السلاح والدبابات ويُقطِعونهم الأراضي ليقيموا عليها مستعمراتهم ، ويمنعوا العرب من الدفاع عن أنفسهم وأَرضهم ويصادرون أسلحتَهم حتىٰ يبقىٰ الصهاينةُ مسيطرينَ علىٰ الساحة في فلسطين، وهاهم يقيمون المستعمرات المحصّنةِ ضد أصحاب البلاد.

* * *